الفصل الثامن والعشرون

في الصناعة المصرية والدرجة المدنية

قد ألمعنا في بعض الأبواب الماضية بطرف مما كان للقسس المصرية من القدم الراسخ في العلوم على إختلاف ضروبها وتباين مناهجها وتنوع مصادرها ومواردها وما كان للمصريين من اليد البيضاء في إحرازهم قصب السبق على غيرهم في درجة الزراعة والإمارة والتجارة براً وبحراً وما كان لهم من الأوّلية في سن القوانين والشرائع وغير ذلك .والآن نذكر لك ذلك مفصلاً تتميماً للفائدة فنقول روى المعلم شمبوليون فيجاك في تاريخه على مصر أن قسسها كانوا مصابيح يهتدي بنورهم من شاء من الأجانب حتى أن علماء أوربا التي بلغت الآن شأو المدنية ورفعت أعلام الرفاهية لم تزل متطفلة على لفظات موائد قدماء اليونان وغيرهم الذين تطفلوا في أيامهم على لفظات موائد أولئك القسس الجهابذة .وقال بروكش باشا أن المصريين تبحروا في جميع العلوم على إختلاف مشاربها وعلموا ما ليعلمه الراسخون من علماء أوربا الآن وكانت علمهم منقوشة في صدورهم وسطورهم وعلى هياكلهم وأماكنهم العامة تتميماً للإستفادة والتعليم وكأنهم رزقوا الحظوة في نشر العلوم وتهذيب الأمة وبث روح الفضيلة النادرة المثال بينهم .وقال هيرودوت أن مدارس الكهنة منتشرة في جميع أمهات القرى بمصر ولكل مدرسة جامعة رئيس أو حبر يدير حركتها وهذه الرتبة ميراثية كرتبة الكاهن الأعظم الذي مقره في هيكل العاصمة وله من الشرف والمكانة عند ذويه ما للملك نفسه عند رعيته اه وكما أن الحكومة كانت تضع في هذا الهيكل الأعظم تماثيل جميع الملوك الذين تناوبوا الجلوس على تخت مصر.

كانت الكهنة تحفظ به أيضا تماثيل رؤساء الديانة الذين تناوبوا الجلوس على التخت الكهنوتي ولما دخل هيرودوت مصر وزار هذا المعبد أراه كهنتها 341 تمثالاً وأشاروا له على واحد منها وقالوا له أن هذا هو آخر من مات من رؤسائنا وهو ابن هذا وأشاروا له على غيره وهو أبن هذا وهكذا إلى أخرها ثم قالوا له أعلم أن في مدة أحد هؤلاء الأحبار أشرقت الشمس من حيث تغرب مرتين وغربت من حيث تشرق مرتين وقد أضطربت علماء جميع الأزمان في تخريج هذه الحادثة الجوية فأجازها بعضهم وأنكرها اخرون وقالوا أن الكهنة ألغزوا بهذا القول على أب المؤرخين) وهو هيرودوت (وقال بعضهم أن المؤرخ المذكور فهم منهم غلطاً وقال فريق أن فى عبارة

الكهنة تحريفاً وقالت طائفة أن الكهنة الذين أشاعوا هذا القول توهموا ذلك ثم قال هذا المؤرخ ولما أجريت الحساب بناء على وجود هذه التماثيل ظهر لى أن مصر كانت عامرة آهلة مقامة الأحكام والشرائع قبل دخولى بمصر بنحو **11340** سنة اهـ.

والظاهر أن هذا المؤرخ جعل لكل قرن ثلاثة أجيال وأعتبر الجيل ٣٣ سنة وكسر فيكون القرن ثلاثة أجيال وهو مخالف لما هو معروف الآن لأن القرن في زماننا عبارة عن أربعة أجيال.

أما ماذكرته الكهنة إلى هذا المؤرخ من أن الشمس أشرقت من حيث تغرب مرتين فيقرب مما ذكره المؤرخون في حادثة وقوف الشمس ليوشع بن نون عليه السلام وملخصه أنه كان يحارب الجبارين بالقرب من مدينة جبيون بالأرض الموعودة وكان ذلك يوم الجمعة ولما رأى عليه السلام أن الشمس على وشك الغروب أشار اليها فوقفت حتى تم له النصر عليهم ولم يناجزهم في السبت ولهذه الحادثة أشار أبوتمام بالتلميح في قوله.

فردت علينا الشمس والليل راغم	بشمس لهم من جانب الخدر تطلع
فوالله ما أدري أ أحـــلام نائم	ألمــت بنــا أم كــان في الركــب يوشــع

وقال بعض علماء الآثار أن الكهنة كانت تعرف على الكميا والتحليل والتركيب والخلط والمزج والتقطير والتصعيد وأن لفظة كميا محرفة عن لفظة كم التي معناها باللغة المصرية الأسود وكانت علماً في الأصل على بلاد مصر.

وزعم الدجالون المولعون بعلم جابر بن حيان أن كهنة مصر كان لهم اليد البيضاء في قلب المعادن إلى ذهب وفضة وخبرة تامة تبدبير الأكسير أو الحجر المكرم واستمالوا بذلك عقول كثير من البسطاء وزينوا لهم نيل المستحيل فأصغوا لدعائهم ولبوا نداءهم فأصبحوا وقد خربت منازلهم ولم يخرجوا منها على طائل وصاروا من فقراء الناس بعد أن كانوا من سراتهم ومياسيرهم وقال بعضهم في جابر بن حيان.

هـــــــــذا الــذي بقالــه	غــــــر الأوائــــــل والأواخـــــر
مـا أنـــــــــت الأكاســـــر	كـــذب الـــذي سمالـــك جـــابر
وقـال غـــــــــــيره وقـد	أصـــــــــبح مــن الفقــراء
ومـا صــــــــنفه جـــابر	في الصـــــ،ـــــنعة جربـــت
فكـم للطـــــــين حملـــت	وللآمـــــــــــال وصــلت

وفـوق الشـــــب والكبريـت   للـــــــزرنيخ صــعدت
وكـم ركبـــــت أبنيقـا   علـى النـــــار وقطـرت
وللأجـــــساد لينـت   ولـــــــلأرواح لطفـت
وللزهـــــرة نقيـت   وكـم للشـــــمس كلست
وكـم في بـــــوط بربـوط   مـن الراســـــخت نزلـت
وبالماســـك كـــــم كـوي   ت في كفـــــي وحرقـت
فاصـــــح لى التـدب   يـر لكـــــنى أدبـرت

وأستدل بعضهم على أنها كانت معروفة عند المصريين بقوله تعالى حكاية عن قارون) انما أوتيته على علم عندى (وتنكير علم يفيد الضن به فأن كان ذلك هو المراد كان للمصريين الفخر الذي عجز الناس عن الإتيان بمثله في جميع المسكونة إلى الآن وكما أن الكهنة كان لها الأسبقية في جميع العلوم العقلية والنقلية كان لعموم الأمة الأسبقية أيضا في الزراعة والصناعة أما الزراعة فكانت متقدمة جداً وبتقدمها تنوعت المحصولات ونمت فتفننوا فيها بالصناعة وما لابد منه من ضروريات المعيشة والحضارة فكان يخرج من معاملهم جميع مايحتاجون إليه من أكل ولبس و زينة و يصدّرون منه ما زاد عن حاجتهم إلى الآفاق فكان ذلك منبع سعادتهم وأصل ثروتهم وقد برعوا في عمل الأواني من أنواع المعادن لإحتياجاتهم المنزلية والتزين قصورهم وسراياتهم كما برعوا في غزل القطن والتيل والكتان والصوف وحياكتها ونسجها حتى حاكت منسوجاتهم أرفع المنسوجات الهندية المتداولة الآن بين الناس وأشتهروا بعمل الأقمشة والديباج والمخمل البابلي والتخييش والتطريز بخيط الذهب والنقش والرسم بالأبرة المعروف عندنا باسم) الركامو والظرافة وغيره (والتلي والحرير وغير ذلك وكانت لحسنها وطلاوتها بهجة منظرها مقبولة في مشارق الأرض ومغاربها

ولما كنت بالصعيد سمعت من بعض الناس أن السائحين الذين يأتون إلى هذه الجهة يشترون قطع الأكفان من الأقمشة المطرزة ويدفعون فيها من مائة قرش إلى الخمسمائة مع أن القطعة الواحدة لا تكاد تبلغ المتر طولًا ويتهافتون على شرائها ليجعلوها نموذجًا ينسجون على شاكلته في بلادهم فأنكرت منهم هذا الخبر وإستضعفته ولما وصلت بندراخميم رأيت في بعض المقابر القديمة قطعة من تلك الأكفان وعليها من التطريز والنقش بالحرير ما يعجز اللسان عن وصفه فصدقت ما كنت كذبته.

وذكر هيرودوت أن أماسيس ملك مصر «من ملوك العائلة السادسة والعشرين» أهدى إلى بلاد لقدمونيا «مملكة قديمة ببلاد اليونان» زينة للصدر وقماشها من أغرب ما يرى عليه نقوش كثيرة متنوعة ومطرزة بخيط الذهب وهدّابها من القطن وأغرب ما بها أن جمع فتلاتها دقيقة جدًا مع أنها مركبة من ٣٦٠ شعرة قطن يمكن الإنسان أن يتحقق منها ولم يوجد الآن من هذا القماش إلا نوع آخر دونه في الحسن كان أهداه الملك المذكور إلى معبد إلهة الحكمة اه وبقدر ما إرتفعت درجة الحياكة عندهم إرتفعت درجة الصباغة فكانوا يعرفون تركيب الألوان ومزجها وإستخراج اللون الأرجواني والعندمي والقرمزي حتي نافست صباغة الهند ومدينتي صور وصيدًا وكان لكبار تجار الفنيقيين مخازن تجارية كثيرة بمدينة منفيس وقال پلين الروماني وهو متعجب رأيت المصريين وهم ينقشون الأقمشة بطريقة بسيطة جدًا وما رأيتهم إستعملوا الألوان لذلك بل الأجزاء التي تزيل كلًا من الألوان والنقش معًا فيغمسون الأقمشة في سائل حار مركز بالأجزاء ثم يخرجونها منه وقد إكتسبت لونًا واحدًا ولم تمض عليها برهة إلا وتكتسب أشكالًا وتظهر لها نقوش ورسوم بديعة وقال علماء هذا العصر إن هذه الطريقة التي رآها پلين ببلاد مصر غير معلومة الأن والتي تعلمها الإفرنج حديثًا من بلاد الهند هي أنهم ينقشون الأقمشة أولًا بالألوان المطلوبة ممزوجة بغراء لا تؤثر فيه أجزاء اللون الثاني الذي يريدون أن يجعلوا أرضية القماش منه ثم يغمسون الأقمشة في هذا اللون وهو حار أو بارد حسب الأصول فتخرج الأقمشة منه ملونة بلون واحد ثم يغمسونها ثانية في سائل مركب من أجزاء تزيل هذا الغراء فعندها تظهر النقوش اه وما إكتسب المصريون هذا التقدم إلا بطول التجارب الكيماوية المطبقة على علم النبات والمعادن الداخلة في علم الصباغة.

ومن نظر إلى الأحجار الكريمة والحلي الذي وجد بجهة أهرام دهشور على أن القوم كان لهم دراية بصقل الأحجار النفيسة الصلبة وتكييفها كما يشاؤن وثقبها وتركيبها في المصوغات ومن إطلع على صياغتهم الموجودة الآن بالمتحف المصري أيقن بإنفرادهم في هذا الفن بين الأمم القديمة جدًا وليس الخبر كالعيان وقد يوجد في نواويسهم ومقابرهم كثير من هذه المصوغات والحلي والأحجار الكريمة والزجاج الملون المختلف الأجناس المنقوش بأوكسيد المعادن أو بالمينة وقال بعض المؤرخين من الإفرنج إن إبراهيم عليه السلام لما أتى مصر مع زوجته سارة ورأى نساءها يتجملن بالحلي أهداها خاتمًا وأساور من ذهب كما أن فرعون يوسف الصديق أهداه خاتمًا وقلادة من الذهب وأن صاعه الذي وضعه في رجل أخيه بنيامين كان من الذهب أيضًا.

وقال بعضهم لما أراد الإسرائيليون الخروج من مصر إستعار نساؤهم من نساء المصريين كثيرًا من الحلي والمال والمصاغ والذهب والفضة ثم خرج الجميع ليلًا بما معهم فأقتفى فرعون أثرهم يقود جيشًا جرارًا وإنتهى الأمر بغرقه في البحر الأحمر مع قومه وفاز الإسرائيليون بما أخذوه غنيمة باردة بلا تعب ومشقة اهـ وقد تعلم الإسرائيليون منهم جميع ما كان لديهم من حياكة ونجارة و بناء وسبك وصباغة وتلوين وغير ذلك بدليل عملهم المظلة أو قبة العهد وأن موسى عليه السلام هو الذي حل تركيب العجل الذي صاغه قومه من الذهب مدة غيابه بجبل الطور ومازالت هذه الصناعة يتوارثونها ويتداولونها إلى زمن سليمان عليه السلام بل إلى زمن بختنصر الجبار لأنه أخذ من مملكة اليهود كثيرًا من أهل الحرف والصنائع وأرسلهم إلى بلاد بابل والظاهر أنه كان لهم مواصلة بالمصريين بعد خروجهم من مصر لأنهم قالوا إن بناء بيت المقدس الشريف ليس إلا معبدًا مصريًا سواء بسواء وإن اليونان والرومان ما إستناروا إلا بضوء مصباحهم مع أنهم أتوا في الزمن الأخير بالنسبة للأمم القديمة المتمدنة لأنهم تعلموا كيفية تنقية الذهب بواسطة الأسرب أي الرصاص وتحويله إلى رقائق رفيعة جدًا وتذهيب المعادن بواسطة النجف الزئبق وتذهيب الرخام والخشب بواسطة زلال البيض ولحام الذهب بالبورق الصناعي ولحام باقي المعادن ببعضها وتبييض النحاس وتركيب الصفر «البرونز» وتحضير المرتك الذهبي «أول أوكسيد الرصاص» والسلقون «ثاني أوكسيد الرصاص» والإسفيداج وأدخلوا في صباغتهم الألوان المستخرجة من الأرض ومن المعادن ولا ريب في أن المصريين كانوا أساتذة اليونان ومعلميهم كما علموهم قيمة المنسوجات الثمينة التي كانوا يزينون بها ملوكهم ومعبوداتهم وكما أن المصريين كانوا يعرفون عمل الأشياء الجليلة كانوا يعرفون أيضًا عمل الأشياء الحقيرة كعمل اللون الأسود المستخرج من العثان «الهباب» ومن راووق الخمر ومن تكليس العاج وعمل الغراء القوي من جلد البقر وكانوا يصبغون أغنامهم باللون الأرجواني ويبيضون الصوف ببخار الكبريت وكانوا يعلمون أن المصباح إذا طفئ في مطمورة أو في مخدع كان هواؤه مخنقًا قتالًا وكانت لهم معرفة تامة بتركيب المينة وعمل الفاخورة والزجاج والنقش وعمل التماثيل من المعادن وتطريقها والحفر عليها والتذهيب وبناء السفن وعمل الخافقى من الرخام المسحوق وعمل الورق البوردي والجلد المصبوغ أو الملون والسختيان ونرى في كثير من الأماكن الأثرية أشياء مركبة بالمينة وكثيرًا من الشقف الصيني والفرفوري الأبيض والملون وكلها جمعت بين اللطافة ودقة الصنعة.

وروى بعض الإفرنج أن المعلم سورس صانع الصيني قلد كثيرًا من هذه الأواني المصرية

الأنيقة الشكل فأجمع أهل أوربا على تقدم قدماء المصريين في هذه الصنعة وقد تحصلنا على كفة ميزان كبيرة لطيفة من أطلال مدنهم فزينا بها دار تحفنا بفرنسا أما الخافقى المركب من الجبس والغراء القوي أو من مسحوق الرخام الأبيض والجير فكثير الوجود بإطلالهم ولتوفر الذهب عندهم وكثرته كانوا يذهبون به كثيرًا من أثاث منازلهم وتماثيلهم وتوابيت موتاهم وكأنهم لم يكتفوا بنقشها وتزيينها بكل الألوان حتى جعلوا على وجوههم وأيديهم وفروج نسائهم صفائح منه ومن تأمل في نقش الصيني والفرفوري الذي كان يخرج من معاملهم على أنهم كانوا على معرفة في شغل القصدير والكوبلت «حجر الزرنيخ» وقال المعلم «داوى» الشهير رأيت تسعة أنموذجات من الزجاج المصري الشفاف المنقوش بالكوبلت أما الكوبلت الأزرق فكثير على آثارهم وقد أثبتت لنا الكيميا الآن أن جميع الألوان التي قاعدتها المعادن ونقشوا بها معابدهم دخلت في مسام الأحجار والجرانيت وتشربها أكثر من خط ومن المستغرب أنهم كانوا يخيطون الزجاج المكسور بسلك من الحديد ويلحمونه بالكبريت و يزينون قصورهم وهياكلهم بالزجاج والمينة و يبلطونها بترابيع من الزجاج الملون البراق المدهش للعقول اهـ أما سبب كثرة الزجاج عندهم فهو أن الله قد خص أرض مصر بكثرة الرمل والتراب وملح البارود والقلى الداخل في تركيبه فإهتدى أهلها بعقلهم لعمله و برعوا فيه ومن البديهي أن هذه المعرفة ما أتت لهم إلا بكثرة التجارب مع طول الزمن وقد أدهشت هذه الصناعة البديعة عقول اليونان والرومان وأخذت بمجاسع قلوبهم وألقتهم في بحر الحيرة لأنهم رأوا بمصر ما لم يسمعوا به من قبل وروي إسترابون أن طائفة من المصريين كانت بمدينة طيبة تعمل سرًا نوعًا من الزجاج الرائق الشفاف ذي الألوان التي تأخذ بالأبصار وتسبى العقول منها ما لونه كلون السنبل أو الياقوت الأصفر أو الأحمر وأن رمسيس الثاني أمر بنصب تمثال على صورته من زجاج أخضر كالزمرد وقالوا إنه نقل إلى مدينة القسطنطينية وبقي بها إلى زمن تيودور وروى أهل السيرة أنه كان في سراي التيه أو البرية التي كانت بالفيوم تمثال هائل من النوع المتقدم ذكره ولما دخلت مصر تحت يد رومة ضربت على أهلها خراجًا سنويًا من الحنطة والزجاج وقال پلين علمت أن أوغسطس قيصر أهدى إلى معبد «الكونكوردو» برومة صورته وصورة أربعة أفيال مصنوعة من العقيق الأزلندي من عمل المصريين وهي أعظم هدية أهدتها الملوك إلى معابدها اهـ.

وكان أحد عمال رومة مصر نزع من معبد عين شمس تمثال «متيلاوس» «ملك إسپارطه اليونانية وأخو أغاممنون قائد جيش اليونان في حرب تروادە» مصنوعًا من الزجاج الأسود فرده

طباريوس قيصر إلى مصر ثانيًا وقال شمپليون فيجاك قد أفعمنا دار تحفنا بما إستخلصناه من مصر من الحلي والجواهر والذهب والفضة المنقوشة بالمينة والمعادن المشغولة اه والظاهر أن هذه الأواني النفيسة المتخذة من الزجاج وغيره الخارجة من معامل مدينتي طيبة وقفط كانت ترسل في البحر الأحمر إلى بلاد العرب وبلاد إفريقيا أما الصفر وإستعماله في الأسلحة والأواني وغيرها فكان شائعًا جدًا ببلاد مصر وقد رأيت بقرية صا الحجر سنة ١٨٩٣ كثيرًا من النصال المصنوعة منه وله ثلاثة أضلاع ولكن من أين كان يأتي لها هذا النعاس الوافر الكمية ولم تهتد العلماء لحل هذه المسئلة إلى الآن غير أنه وجد على بعض الآثار أن بعض الملوك كان مهتمًا بإستخراج النحاس من جهة بلاد العرب وغيرها.

وذكر بعض المؤرخين أن الذي أوصل مصر إلى هذه الدرجة وساعدها على ترقيمها إلى أوج الحضارة والرفاهية هو خلوّ بالها من الفتن والقلاقل الداخلية وبعدها عن الشقاق والثورات الناشئة عن الطمع وحب الرياسة خلافًا لبلاد اليونان التي كانت منقسمة إلى جملة أيالات أو ممالك صغيرة فلذا بقيت قريرة العين ملتئمة الشمل مجتمعة الكلمة منتظمة السياسة الملائمة لأحوال البلاد يوقن صغيرهم وكبيرهم بالحساب والبعث والنشور ويعقدون محافلهم الدينية لمعبوداتهم التي خضعت لها جباه ملوكهم بالتيجان مشمول دانيهم وقاصيهم بعدل القوانين والأحكام الكافلة لإستتباب نظام الهيئة المدنية وتوطيد دعائم الراحة في جميع أنحاء المملكة المصرية ولما رأت الأهالي أن طائفة الكهنة التي هي أشرف الأمة دانت لهؤلاء النواميس والأحكام قلدوهم وتلقوها بالقبول والإمتثال مثلهم فبنيت العواصم وشيدت المدن وبلغت الحضارة أوج فخارها وإرتقت الصنائع ودبت الحمية الوطنية وإستقامت الأحوال وأسست العمائر الثابتة الأركان المؤسسة على العلم والعمل وبنيت الآثار التي فاقت جميع أعمال النوع الإنساني وإنتشرت في جميع أنحاء القطر وإختبرت الأراضي الزراعة ومسكت بالدقة ورصدت الأجرام السماوية وتدونت قوانينها ونواميسها المهمة وتحققت نظرياتها بتطبيقها على المعارف ونسخت بالقلم المتداول بين جميع الناس حينما كان أغلب الأمم ضالًا في غياهب الضلالة وساربًا في مسارب الجهالة ويا ليت القفار كانت وارت سوءته أو سترت المغارات عورته وها هي صورة أشكالهم تنبؤنا بأحوالهم.

ونقل شمپليون فيجاك عن شمپليون الشاب ما ملخصه «لما أتيت مصر وشاهدت صورة الأجانب مرسومة في بعض مقابر ببيان الملوك تعجبت من حسنها فمن ذلك ست صور كل واحدة منها تدل على الأمة التي هي من جنسها وقد إعتنيت بأخذ صورتها أما الأولى فصورة

مصري جعلوه رمزًا على جميع سكان مصر ولونه أحمر داكن معتدل القامة متناسب الأعضاء سمح الوجه طلق المحيا أقني الأنف قليلًا مرسل الشعر سابله عليه كتابة بربائية معناها إنه «الإنسان الكامل» أما الثانية فصورة زنجي وهو رمز على جميع سكان إفريقيا وإسمه بالبربائية «نَحَسْ» «ولعل لفظه مَحَسْ الدالة على بعض أقاليم بلاد النوبة محرفة عنها اهـ مؤلف» الثالثة صورة عربي ويهودي ولونه أحمر مشرب بالصفرة أو السمرة أقني الأنف جدًا له لحية كنة سوداء رقيقة من أسفلها قصير الثياب المزينة بالألوان الرابعة صورة ميدي أي فارسي وهو متقمش بنحو مئزر ملتف به وعليه رداء قصير خفيف اللحية والعارضين الخامسة صورة يوناني أو أيوني «نسبة إلى أيونيا إحدى ولايات أسيا الصغرى القديمة وكان يسكنها طائفة من اليونان اهـ مؤلف » وهو قابض بيمناه على قوس وبيسراه على مسوقة وخلفه جعتة النشاب وكلها رمز على قسم آسيا أو على ممالكها السادسة وهي الأخيرة صورة أوربي جعلوه رمز على جميع سكان أوربا وهو أبيض اللون معتدلًا الأنف أزرق العينين أصهب اللحية «أشقرها» طويل القامة نحيفها عليه قباء من جلد ثور بشعره وهي دلالة على الهمجية والوحشية وهذه الصورة «وأخجلتي من بيانها لأنها صورة أجدادنا المتوحشين سكان أوربا الذين حطتهم همجيتهم في آخر ترتيب النوع الإنساني» ولسوء اليخت ما كانت وجوههم بالسمحة المليحة وقد علمت أن المصريين ما رسموا تلك الصور إلا ليبينوا لمن يأتي بعدهم حالة سكان أربعة أقسام الدنيا وأوّلهم المصريون وهم أول قسم ثم سكان إفريقيا وهم الزنوج ثم سكان آسيا ثم سكان أوربا وهم آخر أنواع بنى آدم اهـ ملخصًا «رجع» ومن مخترعاتهم المستغربة أنهم كانوا يشيدون أرصفتهم على النيل بكيفية لم تزل إلى الآن غير مستعملة ببلاد أوربا وهي أنهم كانوا يجعلونها على هيئة أقواس متجهة إلى الماء وحديتها إلى الأرض فبذلك يكون لها صلابة ومتانة قوية تقاوم تدافع التراب وضغط الأرض ومهما بلغ إرتفاع الأرصفة التي تكون على هذا النمط لا تتزعزع من تثاقل التراب عليها إلا إذا إختلت نقط إرتكازها وهي أطرافها وبقاء هذه الأرصفة إلى الآن من أعظم الأدلة والبراهين على متانتها كما أنها من أعظم الأدلة والبراهين على صفاء فكرتهم وتوقد مدركاتهم في التفنن وسلامة الإختراع مع أن في بناء هذه الأقواس الأفقية مشاقًا تصعب على المهندسين من الإفرنج رغمًا عن تقدم العلوم في أوربا ولم نر في أجسم مبانيهم وأكبرها أدنى عيبًا فإن الهياكل التي بلغ طولها أكثر من أربعمائة قدمًا وإرتفاعها أكثر من الأربعين قدمًا لم يبد لعين الرائي في واحد من أحجارها الكثيرة أقل إختلال أو تزعزع عن مكانه ولا يقع نظر الإنسان في هذه العمارات العظيمة الأعلى خطوط

مستقيمة وأسطحة مستوية مع أن معابد اليونان والرومان التي هي أحدث عهدًا منها قد لعبت بها أيدي الكوارث وأخنت عليها الأيام أما معابد أوربا فإنها لم تقاوم كر الدهور إلا مدة بعض قرون ثم تمحي وتزول فضلًا عن إنها بمعزل عن معابد مصر من حيثية تنميق الزينة وتنسيق الترتيب وكثرة النقوش والتصاوير حتى إن الكتابة والنقوش التي توجد على جدر المعبد الواحد تبلغ لغاية خمسين ألف قدم مربع ما بين كتابة دينية وإشارات رمزية ورسوم حربية كما أنه لا يوجد لغاية الآن على سطح الكرة الأرضية عمارة فخمة أبرزتها يد الإنسان تقرب من هذه العمارات التي جميع مبانيها على هذا الأسلوب الآنف الذكر وهل يستطيع الإنسان أن يقطع هذه المسلات التي بلغ طول بعضها نحو المائة قدم أم هذه التماثيل التي بلغ إرتفاعها إلى الخمسة وخمسين بل إلى الستين قدمًا مع أن جميع أعضائها متناسبة مع بعضها وأغرب من ذلك أنها مع إنفرادها في الحسن والعظم صنعت من قطعة واحدة من حجر الجرانيت المنقول من أسوان إلى طيبة مع أن بينهما أكثر من أربعين فرسخًا بل نقلت من أسوان إلى الإسكندرية أعني من الشلال الأول الواقع في جنوب مصر إلى البحر الأبيض المتوسط الواقع في شمالها وهل تستطيع أمة أن تجول مثلها في هذا الميدان إلا إذا بلغت أوج فخارها وسمت إلى عرش مجدها وكانت موصوفة بالمعارف التي يتشرف بها النوع الإنساني أما تجارتها فكانت رائجة في جميع الأسواق ولسهولة المعاملة التجارية إتحدت مع مملكة مروا «مكانها الآن بين البحر الأزرق و بحر تكازه أو إتبرا ببلاد السودان» وإنجذبت كل واحدة منهما لصاحبتها بواسطة هذه العلاقة وإمتدت تجارتها على شواطئ البحر الأحمر وداخل إفريقيا والذي سهل لمصر ذلك وقوعها بين بحرين عظيمين وهما البحر الأبيض والأحمر والفتوحات البعيدة التي كانت مصر تواليها في تلك الأزمان فبواسطتها إكتشفت أقرب الطرق للبلاد الأجنبية ولم تقتصر على بيع السلع والأعيان بل كانت تمير بحنطتها كثيرًا من الممالك المجاورة لها وتأخذ بدلًا عنها ما عندهم من متحصلات بلادهم كالمعادن المتنوعة والطيب والعطر المرغوب فيهما بمصر لتطييب الأحياء والأموات والمعابد والأصنام.

وكانت بلاد الهند والصين وأسيا العليا ترسل إليها مصنوعاتها الفاخرة كالأقمشة المتخذة من الخز والأبسطة والغراء والروائح العطرية والبخور وسن الفيل والأخشاب النفيسة واللؤلؤ والبهارات وغير ذلك وهي ترسل إليها من جميع محصولاتها ومصنوعاتها ولما كانت هذه البلاد بعيدة عن بعضها جعلوا مراكز تجارية في جميع الجهات لتقريب المسافات بينها بدليل ما ورد في التوراة من أن يوسف الصديق عليه السلام باعته إخوته إلى السيارة من الإسماعيلية الآتين من

جلعاد الواقعة على نهر الأردن أو الشريعة وكانوا قاصدين مصر يحملون على إبلهم الروائح العطرية والراتينج والمر وكانت بلاد الشام تبعث لها الأخشاب اللازمة لعمل السفن لتوفر الغابات في جبالها وكانت قوافلها تقطع الصحراء والقفار وهي آمنة لوجود المراكز التجارية في جميع الجهات كما أن سفنها التجارية

كانت تجول في البحار المجاورة لها فبذلك كانت الثانية لمملكة فينقيا المشهورة بالملاحة والثالثة لبلاد الهند وأشور مدة إنفرادهما بثروة التجارة والصناعة.

ومن المحقق أن فرعون نيخاؤس «المعروف بإسم فرعون الأعرج من العائلة السادسة والعشرين» أمر جماعة من الصوريين بالطواف حول إفريقيا لإستكشافها فأقلعوا بسفنهم في البحر الأحمر ودخلوا بحر الهند ووصلوا المحيط الأعظم ثم دخلوا في المحيط الأتلنطيقي أو بحر الظلمات ومازالوا سائرين به إلى أن مروا ببوغاز أعمدة هرقول المعروف ببوغاز جبل طارق أو زقاق سبته ثم عادوا إلى مصر بعد ثلاث سنين.

وذكر المؤرخون أن رمسيس الأكبر صنع أسطولًا مركبًا من أربعمائة سفينة شراعية وفتح به جميع الممالك الواقعة على البحر الأحمر وبحر الهند وإستولى على جميع الجزائر التي به حتى وصل بلاد الهند ويقال إن هذه التجريدة كانت أول مرة ظهرت فيها سفن عظيمة في هذا البحر فكانت غزوة مباركة لأنها أتت بفائدتين جليلتين إحداهما فتوح تلك البلاد ودخولها تحت الطاعة وثانيهما معرفة طرق التجارة بتلك الجهة وكانت مصر تقبض الجزية من بلاد سواحل الهند وإفريقيا وبلاد العرب فكانت أهالي إفريقيا تؤدي لها الجزية من الذهب والأبنوس وسن الفيل وسن فرس البحر وجلده ومن الحيوانات النادرة الوجود الغريبة الشكل وبلاد العرب تؤدي لها الذهب والفضة والحديد والنحاس والمر والبخور وبلاد الهند ترسل لها الأحجار الكريمة والمواد المعدنية المتنوعة والأقمشة الثمينة «انظر الشكل الآتي».

«اللوحة الأولى» بها رجل زنجي «سوداني» يحمل خشب الأبنوس ويقود نمرًا ثم زنجيان يسوقان زرافة وفي عنقها قرد.

«اللوحة الثانية» بها أهل آسيا وأفريقيا وصحراء برقة تحمل الجزية والأول منهم يحمل سلة وآنية بها أزهار غريبة لتغرس بأرض مصر ثم إثنان يعملان شجرة صغيرة بصلايتها لتغرس بها أيضًا لغرابتها ثم رجل يسوق تيسا جبليًا و يحمل خشبًا ذا رائحة زكية ثم زنجي يعمل حلقانا من الذهب

وسن الفيل ثم ثلاث نساء إثنتان منهنّ من جهة آسيا والثالثة زنجية وجميعهن رقيق بأولادهنّ ثم زنجي يقود قردًا ويحمل آنية بها سبايك من الذهب أما الآخير من أهل آسيا وهو يحمل قوسًا وخلف ظهره جعبة النشاب وعلى كتفه قدر به عسل أو نحوه وهذا الرسم يدل على بعض أنواع الجزية لا جميعها. وجميع ذلك يثبت شهرة مصر بالغنى وبفن الملاحة وقد رأى شمپليون الشاب على بعض الأوراق البردية الباقية من عهد رمسيس الأكبر صورة سفينة عظيمة بجميع أدواتها ناشرة أشرعتها وعلى صواريها ملاحون يديرون حركتها وقد نصت التواريخ أن جماعة من المصريين هاجروا إلى بلاد اليونان قبل وبعد إستيلاء هذا الملك على سرير الملك ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان للمصريين دراية تامة بفن الملاحة حتى يأمنوا على أنفسهم من شر الغرق وبالجملة فوضع مصر الجغرافي بين الثلاث قارات وهي أوربا وآسيا وأفريقيا ووقوعها على بحرين عظيمين أي البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وخصوبة أرضها وتنوع محصولاتها ينظمها في سلك أعظم الممالك القديمة التجارية وهذه التجارة الواسعة تجعلها في مقدمة الممالك التي كانت متمدنة فإنها كانت تشتغل بالتجارة في غلاتها ومحصولاتها المتنوعة الخارقة العادة وكانت ترسل مصنوعاتها «الباقي شيء منها إلى الآن» في أطلال مدنها إلى من جاورها من الأمم وقتئذ وبذلك توصلت إلى أن تعطي جميع نظاماتها وترتيباتها الأهلية منظر العظمة والثروة ومن البديهي أن ذلك نتيجة النشاط والعمل والقدوم على مهام الأمور في داخليتها وخارجيتها فضلًا عن أنه كان لها جملة مواسم دينية تقام حينا فحينا في أغلب مدنها يقصدها الناس من كل مكان ترويجًا لتجارتهم وكان هذا سببًا لقبولهم الأجانب وإكرام مثواهم مع شدة بغضهم لهم لتباين دينهم لأن حركة التجارة والأخذ والعطاء والمقايضة في السلع أحوجتهم لمداراتهم وحسن معاملتهم ولما كانت مدينة طيبة في التخت العام والمركز الديني متوسطة ما بين السودان واليمن والحجاز والشام قصدتها القوافل بمتاجرها حتى إجتمع بها من الأموال مالم يدخل تحت حصر وقال أوميروس الشاعر كانت بها الأموال ونفائس البضائع متكومة على بعضها لكثرتها وقضت عليها التجارة بربط علائق المودة بينها وبين أهل السودان وقرطاجنه «بلاد تونس الغرب» المشهورة بالثروة في تلك الأزمان وقد تكلم هيرودوت على الطرق التجارية التي كانت مستعملة في تلك الأعصار ومطروقة ما بين مدينة طيبة وباقي الممالك فقال أولها طريق عام يخرج من هذه العاصمة ويصل إلى مملكة قرطاجنة الفينيقية فيتجه أولًا إلى الشمال الغربي ويمر بواحة أمون «واحة سيوى» ثم يصل إلى مدينة سدره أوسرته «ببلاد طرابلس الغرب» بعدما يمر بواحة أوجلة «جهة الجنوب من أرض فزان ببلاد

طرابلس» وهناك يخرج منه طريق آخر يتجه إلى الجنوب الغربي ببلاد جرماته حتى يصل بلاد قرطاجنه «وكانت هذه المدينة معاصرة لسيدنا سليمان عليه السلام ولا يخفى من له أدنى دراية بالتاريخ ما كان لها من السعة والثروة والجولان في جميع البحار».

ثانيها طريق يخرج من مدينة طيبة ويصل إلى بوغاز أعمدة هرقول «بوغاز جبل طارق في شمال مملكة مراكش» ثم يصل إلى المحيط الأعظم.

ثالثها طريقان يخرجان من مدينة طيبة ويمران ببلاد إتيوبيا ومملكة مروه الشهيرة «بين نهر تكازة والبحر الأزرق ببلاد السودان» أحدهما يسلك محاذيًا للنيل والثاني يخترق عطامير النوبة.

رابعها طريق مسلوك يخرج منها ويصل إلى البحر الأحمر ثم طريق آخر يخرج من بلدة إدفو ويجتمع مع الطريق الأول بثغر القصير.

أما الطرق التي كانت تخرج من مدينة منفيس والوجه البحري وتتجه إلى جميع الجهات فكانت كثيرة جدًا أيضًا أعظمها ما كان يخرج من هذه المدينة ويصل إلى بلاد فينقيا التي كان أعظم مدنها مدينتي صور وصيدا ومنها تتفرع جملة طرق منها ما يصل إلى بلاد الأرمن ومنها ما يصل إلى بلاد الشركس ومنها ما يصل إلى بلاد بابل بعدما يمر بولاية تدمر ثم يخرج من مدينة بابل طريق يمر ببلاد السوس ويصل إلى بلاد الهند.

وكانت مصر لا تألو عزمًا في نشر معارفها الصناعية والجغرافية بين جميع هذه البلاد بقصد رواج تجارتها بين العالم وكان قانونها مرعيًا والربا محرمًا عليهم شرعًا والذي سهل لها هذه الطرق وأعانها على موالاة الأسفار البعيدة هي الحروب والغزوات التي عانتها شرقًا وجنوبًا بقسمي آسيا وإفريقيا والغنائم التي كانت تجلبها معها وقد ورد بعضها بالجداول المدونة على الآثار الدالة على الإنتحار والظفر بالأعداء ومن رآى ما هو منقوش على جدران الدير البحري جهة الكرنك علم ما كان للمصريين من السودد والسيادة وسوف يأتي الكلام على هذا المكان في الرحلة العلمية بالفصل الثامن عشر.

وقال المعلم فوريه ما ملخصه قد إستنبطنا من التوراة ما كان للمصريين من درجة التقدم في الحرف والصنائع فإنها قضت علينا حالة الهيئة الإجتماعية التي كانت بمدينة طيبة ومنفيس عند دخول أجداد العبرانيين مصر وعند خروجهم منها إلى بلاد فلسطين لأنهم لما خرجوا منها كان لهم دراية تامة بجميع الصنائع التي كانت شائعة في تلك البلاد المصرية وقدرتهم على عمل المظلة

أوقية العهد وسن قوانينهم برهان على ذلك لأن من قارن بين الصنائع التي باشروها في عملها بعد خروجهم وصنائع المصريين الباقية على شاطئ النيل وجد مطابقة تامة فإن سفر الخروج إشتمل على أصول العمارة المصرية وإحكام الرسم والتناسب العددي ونصب العمد بقواعدها وتيجانها وأصول تزيين العمارات وإستعمال المعادن المختلفة والحياكة والتطريز بالذهب وصبغ الجلود والأقمشة بالألوان الزاهية المتنوعة وصقل الأحجار الكريمة وحفرها ولا يخفى أن هذه الصنائع مفتقرة إلى معرفة صنائع أخرى كثيرة مما كانت مستعملة بمصر وآسيا قبل دخول إسكروبس المصري ببلاد أتيكه «هو الذي أسس مدينة أثينة عاصمة اليونان» ومن نظر إلى الآثار وطالع سفر الخروج على أن جميع ما إكتسبه العبرانيون من المعارف والصنائع كان شائعًا متداولًا بين الخاصة والعامة بمصر ومن المعلوم أن هذه المعارف الواسعة التي هي ثمرة الزمن والعقل يسقط إعتبارها كلما كانت مبذولة بين الناس وشائعة فيهم وما إخالهم دوّنوها في صفحات آثارهم إلا لتكون أعجوبة لن يأتي بعدهم ويعجز عن الإتيان بمثلها ولقد علمنا منها ومن الورق البردي صورة القتال والحصار والنصر وأنواع الأسلحة والعربات الحربية وأدوات الحرب وما كان الأول من القوة وشدة البأس وما للأسارى من الذل والإحتقار وكيفية تركيب مواكب الإنتصار ومقدار الشرف الذي يعود على من يأخذ للوطن بثأره من عدوه.

ولا شك أن معرفة اللغة القديمة تعود على التاريخ بأجل الفوائد وتنير العقل بمعرفة ما كان لأهل آسيا من الحضارة السابقة على زمن خرافات اليونان وتشخص لنا السياسة القديمة في هيئات مختلفة مغايرة لما إختارته الأمم المتمدنة الآن ولا شيء أجدر بالإلتفات إليه من الفلسفة القديمة المصرية لا بهذه الأمة التي أخذ الإفرنج عنها أغلب معارفهم بنت آدابها على أقوى الدعائم فإخترعت وتمت وأحرزت كل لطيفة وصيرت إقليمها أنقى هواء وأخصب تربة وأعظم إتساعًا ورفعت لفن العمارة أعلى منار فإقتبس اليونان من نورها ونحوا نحوها ولولا ذلك ما كان لنقوشهم وتماثيلهم إسم يذكر ولا معنى يؤثر وما كانوا يهتدون لعمل الشعر والعروض والموسيقى التي نسبوها لمعبوداتهم اهـ.

وقال أفلاطون إن جميع النوع البشري أسير إحسان المصريين لأنهم علموه فن القراءة والكتابة والهندسة والفلك والله أعلم.